سورة الرحمن

هى مكية وعدّة آيها ثمان وسبعون ، نزلت بعد سورة الرعد .

ووجه صلتها بما قبلها :

(١) إن فيها تفصيل أحوال المجرمين والمتقين التى أشير إليها فى السورة السابقة إجمالا فى قوله : « إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ » وقوله : « إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ » .

(٢) إنه عدّد فى السورة السابقة ما نزل بالأمم التى قد خلت من ضروب النقم و بين عقب كل ضرب منها أن القرآن قد يسر لتذكر الناس و إيقاظهم ، ثم نعى عليهم إعراضهم — وهنا عدد ما أفاض الله على عباده من ضروب النعم الدينية والدنيوية فى الأنفس والآفاق ، وأنكر عليهم إثر كل فن منها إخلالهم بموجب شكرها .

(٣) إن قوله : « الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ » كأنه جواب سائل يقول : ماذا صنع المليك المقتدر ، وما أفاد برحمته أهل الأرض ؟ .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّحْمَنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤) الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (٥) وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ (٦) وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (٧) أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ (٨) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ (٩) وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ (١٠) فِيهَا فَاكِهَةٌ

وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ (١١) وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ (١٢) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٣) .

شرح المفردات

الرحمن: اسم من أسماء الله الحسنى ، والإنسان هو هذا النوع ، البيان : تعبيرالإنسان عما فى ضميره و إفهامه لغيره ، بحسبان : أى بحساب دقيق منظم ، والنجم: مالاساق له من النبات كالحنطة والفول ، والشجر : ما له ساق كالنخل والبرتقال ، يسجدان : أى ينقادان لله طبعا كما ينقاد المكلفون اختيارا ، رفعها : أى خلقها مرفوعة المحل والمرتبة ، والميزان : العدل والنظام ، وأقيموا الوزن بالقسط : أى قوّموا وزنكم بالعدل ولا تخسروا الميزان : أى لاتنقصوه ، للأنام : أى للخلق ، والأكام : واحدها كمّ (بالكسر) وعاء الثمر ، والعصف : ورق النبات الذى على السنبلة ، والريحان : كل مشموم طيب الرائحة من النبات ، والآلاء : النعم واحدها إلًى (بفتح الهمزة وكسرها) وإلْىٌ وإلْوٌ .

المعنى الجملى

بين سبحانه ما صنعه المليك المقتدر من النعم لعباده ، رحمة بهم فأفاد :

(١) أنه علم القرآن وأحكام الشرائع لهداية الخلق وإتمام سعادتهم فى معاشهم ومعادهم .

(٢) أنه خلق الإنسان على أحسن تقويم وكمله بالعقل والمعرفة .

(٣) أنه علمه النطق و إفهام غيره ، ولا يتم هذا إلا بنفس وعقل .

(٤) أنه سخر له الشمس والقمر والنجوم على نظام بديع ووضع أنيق لحاجته إليها فى دنياه ودينه .

(٥) أنه سخر له النجم والشجر ليقتات منهما .

(٦) أنه رفع السماء وأقامها بالحكمة والنظام .

(٧) أنه أوجد الأرض وما فيها من نخل وفاكهة وحب ذى عصف وريحان .

الإيضاح

(الرحمن علم القرآن) أى الله سبحانه علّم محمدا صلى الله عليه وسلم القرآن ، ومحمد علمه أمته .

وهذه الآية نزلت جوابا لأهل مكة حين قالوا : « إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ » .

ولما كانت هذه السورة لتعديد نعمه التى أنعم بها على عباده — قدم النعمة التى هى أجلها قدرا وأكثرها نفعا ، وأتمها فائدة ، وهى نعمة تعليم القرآن الكريم ، فباتباعه تكون سعادة الدارين ، وبالسير على نهجه تنال الرغائب فيهما وهو سنام الكتب السماوية ، وقد نزل على خير البرية .

ثم امتنّ بعد هذه النعمة بنعمة الخلق التى هى مناط كل الأمور ومرجع جميع الأشياء فقال :

(خلق الإنسان علمه البيان) أى خلق هذا الجنس وعلمه التعبير عما يختلج بخاطره ويدور بخلده ، ولولا ذلك ما علم محمد القرآن لأمته .

ولما كان الإنسان مدنيا بطبعه لا يعيش إلا مجتمعا بسواه — كان لابد له من لغة يتفاهم بها مع سواه من أبناء جنسه ويكتب إليه فى الأقطار النائية ، والبلاد النازحة ، ويحفظ علوم السلف ، لينتفع بها الخلف ، ويزيد فيها اللاحق ، على ما فعل السابق .

وهذه منة روحية كبرى لا تعدلها منة أخرى فى هذه الحياة ، ومن ثم قدمها على النعم الأخرى الآتية .

وقد بدأ أوّلا بما يتعلم وهو القرآن الذى به السعادة ، ثم ثنى بالتعلم ، ثم ثلث بطريق التعلم وكيفيته ، ثم انتقل إلى ذكر الأجرام العلوية التى ينتفع بها الناس فى معاشهم فقال :

(الشمس والقمر بحسبان) أى إن الشمس والقمر وهما من أعظم الأجرام يجريان فى بروجهما ومنازلهما بحساب مقدر معلوم ، وبهما تنتظم أمور المخلوقات الأرضية ، وتختلف الفصول ، وبهذا الحسبان انتفع بهما الناس فى شئون الزراعات كمواعيد البذر والحصاد ، وما ينفع منها فى كل فصل من الفصول ، وفى الأمور المالية من بيع وشراء لآجال محدودة من شهور وسنين ، وفى تقدير الأعمار والآجال التى تقدمت ، وجاءت فى أخبار الماضين ، والتى ستكون للحاضرين .

وبعد أن ذكر أن الشمس والقمر طوع قدرته وقد جعل لهما النظم الدقيقة فى الحسبان ـ أردفه بانقياد العوالم الأرضية له فقال :

(والنجم والشجر يسجدان) أى والزرع والشجر ينقادان لله فيما أراد بهما طبعا كما ينقاد المكلف اختيارا ، فما اختلافهما فى الشكل والهيئة واللون والمقدار والطعم والرائحة ، إلا انقياد للقدرة التى أرادت ذلك .

(والسماء رفعها ووضع الميزان) أى وجعل العالم العلوى رفيع القدر ، إذ هو مبتدأ أحكامه ، ومتنزّل أوامره ونواهيه لعباده ، وسكن ملائكته الذين يهبطون بالوحى على أنبيائه ، وجعل نظم العالم الأرضى تسير على نهج العدل ، فعدْلٌ فى الاعتقاد كالتوحيد ، إذ هو وسط بين إنكار الإله والشرك به ، وعدل فى العبادات والفضائل والآداب ، وعدل بين القوى الروحية والبدنية ، فأمر عباده بتزكية نفوسهم وأباح لهم كثيرا من الطيبات لحفظ البدن ، ونهى عن الغلوّ فى الدين والإسراف فى حب الدنيا ، وهكذا ترى أن عدله شامل لكل ما فى هذا العالم لا يغادر الصغير ولا الكبير منه .

(ألا تطغوا فى الميزان) أى فعل ذلك لئلا تعتدوا وتتجاوزوا ما ينبغى من العدل والنَّصَفة وجرى الأمور وفق ما وُضع لكم من سنن الميزان فى كل أمر ، فترقى شئونكم ، وتنتظم أعمالكم وأخلاقكم .

ثم أكد هذا بقوله :

(وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان) أى قوّموا وزنكم بالعدل ، ولا تنقصوه شيئا ؛ وفى هذا إشارة إلى مراعاته فى جميع أعمال الإنسان وأقواله .

والتكرير للتوصية به وتأكيد الأمر باستعماله والحث عليه ، وقد أمر سبحانه أوّلا بالتسوية ، ثم نهى عن الطغيان الذى هو مجاوزة الحد ، ثم نهى عن الخسران الذى هو النقص والبخس .

وقال قتادة فى هذه الآية : اعدل يا بن آدم كما تحب أن يُعْدَل لك ، وأَوْفِ كما تحب أن يُوفّى لك ، فإن فى العدل صلاح الناس .

وبعد أن ذكر نعمه الدالة على قدرته برفع السماء ذكر مقابلها وهو الأرض فقال :

(والأرض وضعها للأنام) أى والأرض بسطها لسكنى الحيوان من كل ما له روح وفيه حياة لينتفع بما فى ظاهرها وباطنها فى معايشه على ضروب مختلفة وأشكال لاحصر لها .

ثم فصل ما تقدم بقوله :

(فيها فاكهة) أى فيها ما يتفكه به من ألوان الثمار طازجة ومطبوخة ومجففة على شتى الأشكال وضروب الألوان .

(والنخل ذات الأكمام) أى والنخل ذات الأوعية لثمرها حين ظهوره ، وأفردها بالذكر لكثرتها بالبلاد العربية ، وكثرة فوائدها ، لأنه ينتفع بثمارها رطبة ويابسة ، وينتفع بجميع أجزائها ، فيتخذ من خوصها السلال والزنابيل ، ومن ليفها الحبال ، ومن جريدها سقف البيوت ، ويؤكل جُمّارها ، ومن ثم ذكرها باسمها ، وذكر الفاكهة دون أشجارها .

(والحب ذو العصف والريحان) أى وجميع الحبوب التى يقتات بها كالحنطة والشعير ، ولها عصف من الورق على سنابلها ، وكل مشموم من النبات تطيب رائحته .

وذكر أولا الفاكهة ، لأنها للتفكهة فحسب ، ثم النخل لأن ثمرها فاكهة وغذاء

ثم الحب الذى عليه المعول فى الغذاء فى جميع البلاد ، فهو أتم نعمة لموافقته لمزاج الإنسان ، ومن ثم خلقه الله فى سائر البلاد ، وجعل النخل فى البلاد الحارة دون غيرها .

(فبأى آلاء ربكما تكذبان) أى فبأى النعم المتقدمة يا معشر الثقلين من الجن والإنس تكذبان ؟ والمراد من تكذيب آلائه كفرهم بربهم ، لأن إشراكهم آلهتهم به فى العبادة دليل على كفرانهم بها ، إذ من حق النعم أن تشكر ، والشكر إنما يكون بعبادة من أسداها إليهم .

والتعبير (بالرب) للإشارة إلى أنها نعم صادرة من المالك المربى لهما الذى ينميهما أجساما وعقولا ، فهو الحقيق بالحمد والشكر على ما أولى وأنعم ، والعبادة له دون سواه .

وقد كررت هذه الآية فى واحد وثلاثين موضعا من السورة تقريرا للنعمة ، وتأكيدا للتذكير بها ، فتراه عدّد نعمه على الخلق وفصل بين كل نعمتين بما يذكرهم ويقررهم بها .

وهذا أسلوب كثير الاستعمال فى كلام العرب : فترى الرجل يقول لمن أحسن إليه بنعمة وهو يكفر بها ، ألم تكن فقيرا فأغنيتك ، أفتنكر هذا ؟ ألم تكن عريانا فكسوتك ؟ أفتنكر هذا ، ألم تكن خاملا فرفعت قدرك ، أفتنكر هذا ؟.

فكأنه سبحانه قال : ألم أخلق الإنسان . وأعلمه البيان . وأجعل الشمس والقمر بحسبان . وأنوّع الشجر . وأبدع الثمر . وأعمها فى البدو والحضر ، لمن آمن بى وكفر . وأسقيها حينا بالمطر ، وآونة بالجداول والنهر . أفتنكران ذلك أيها الإنس والجن ؟.

وقد جاء مثل هذا فى أشعارهم : انظر قول مهلهل يرثى أخاه كليبا :

على أنْ ليس عِدْلا من كليب إذا ماضيم جيران المجير

على أنْ ليس عدلا من كليب إذا خرجت مخبَّأة الخدور

على أن ليس عدلا من كليب إذا خيف المخوف من الثغور
على أن ليس عدلا من كليب إذا ما خار جأش المستجير

وهى قصيدة طويلة على هذا النسق ، ولها نظائر أيضا فى رثائه ، ولولا خشية التطويل لأوردنا شيئا منها . وعدلا أى مثلا ونظيرا .

خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ (١٤) وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ (١٥) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٦) رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ (١٧) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٨) مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (١٩) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ (٢٠) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢١) يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ (٢٢) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٣) وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنْشَئَاتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ (٢٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٥) .

شرح المفردات

الصلصال : الطين اليابس الذى له صلصلة وصوت إذا نقر ، والفخار : الخزف وهو الطين المطبوخ ، والجان : نوع من الجن ، والمارج : اللهب الخالص الذى لا دخان فيه ، رب المشرقين : أى مشرق الشمس صيفا وشتاء ، ورب المغربين : أى مغربيهما كذلك ، مرج البحرين : أى أرسلهما وأجراهما من قولهم مرجتُ الدابة فى المرعى : أى أرسلتها فيه ، يلتقيان : أى يتجاوران وتماس سطوحهما لا فصل بينهما فى رأى العين ، برزخ : أى حاجز ، لا يبغيان : أى لا يبغى أحدهما على الآخر بالممازجة وإبطال خاصته ، واللؤلؤ : الدر المخلوق فى الأصداف ، والمرجان : الخرز الأحمر ،

الجوارى : السفن الكبار ، المنشئات : أى المصنوعات ، والأعلام : الجبال واحدها علم وهو الجبل العالى .

المعنى الجملى

بعد أن عدد سبحانه كثيرا من النعم وكان بعضها يحتاج إلى زيادة إيضاح و بيان كخلق الإنسان ، وحساب الشمس والقمر ، وأسباب نمو الزرع والشجر — فصل أحوالها على الترتيب السابق .

الإيضاح

(خلق الإنسان من صلصال كالفخار) أى خلق الإنسان الأول وهو آدم عليه السلام من طين يابس له صلصلة إذا نقر ، وهو كالخزف المطبوخ فى صلابته .

إيضاح هذا أن الطين المطبوخ مركب من الطين والحرارة التى أنضجته وسوّته لتحفظ كيانه؛ وهكذا الإنسان له شهوة الطعام والشراب والتزاوج ، لتبقى بنيته وتدوم حياته بالمادة الأرضية التى اجتذبها النبات من الأرض ؛ وله قوة غضبية تورثه الشجاعة والقوة ليحافظ على بقائه وحياته ، ويمنع عن نفسه عاديات الكواسر ، ومهاجمات الجيوش والأعداء المحيطة به من كل جانب ، وهذه القوة فى الإنسان تقابل طبخ الطعام ليصير فخارا ، فتتماسك أجزاؤه ، ولولاها لما استطاع المحافظة على هيكله المنصوب ، وجسمه المحبوب ، من الكواسر وأهل القسوة من بنى الإنسان ، ولأصبح قتيلا فى الفلوات تأكله الطير ، أو تهوى بأجزائه الريح فى مكان سحيق ؛ كما أن الطين إذا لم يطبخ يتفتت وتذروه الرياح أو يذوب فى أجزاء الأرض .

وقد جاء فى الكتاب الكريم عبارات مختلفة فى خلق الإنسان باعتبار مراتب الخلق ؛ فمرة قال إنه خلقه من تراب وأخرى قال إنه من طين لازب : أى لاصق باليد لما اختلط به الماء ، وهنا قال من صلصال .

(وخلق الجانّ من مارج من نار) أى وخلق الجن من النار الصافية المختلط بعضها ببعض ، فمن لهب أصفر إلى أحمر إلى مشوب بالخضرة ؛ فكما أن الإنسان من عناصر مختلفات ، فالجانّ من أنواع من اللهب مختلطات .

ولقد أظهر الكشف الحديث أن الضوء مركب من ألوان سبعة ، ولفظ (المارج) يشير إلى ذلك ، وإلى أن اللهب مضطرب دائما .

(فبأى آلاء ربكما تكذبان) مما أفاض عليكما فى تضاعيف خلقكما من سوابغ النعم .

روى نافع عن ابن عمر قال : «إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ سورة الرحمن أو قرئت عنده فقال : مالى أسمع الجن أحسن جوابا لربها منكم ؟ قالوا وما ذاك يا رسول الله ؟ قال : ما أتيت على قول الله (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) إلا قالت الجن : لا بشىء من نعمة ربنا نكذب » .

ولما فرغ من إيضاح خلق الإنسان شرع يوضح خلق الشمس والقمر بحسبان قال :

(رب المشرقين ورب المغربين) أى رب مشرق الصيف والشتاء ومغربيهما ، اللذين يترتب عليهما تقلب الفصول الأربعة ، وتقلب الهواء وتنوعه ، وما يلى ذلك من الأمطار والشجر والنبات والأنهار الجاريات .

(فبأى آلاء ربكما تكذبان) أى فبأى نعمة من هذه النعم تكذبان ؟ أفتنكران الأمطار وفوائدها ؟ أم تنكران ما لاختلاف الفصول من منافع ، فبها تختلف صنوف المزروعات من صيفية إلى شتوية ، أم تنكران ما لاختلاف الأجواء من مزايا فى تنظيم مزاج الإنسان والحيوان .

ولما ذكر نعمه التى تترى على عباده فى البر أعقبها بنعمه عليهم فى البحر فقال :

(مرج البحرين يلتقيان . بينهما برزخ لا يبغيان) أى أرسل البحر الملح والبحر العذب متجاورين متلاقيين لا يبغى أحدهما على الآخر ؛ فلا الملح يطغى على العذب فيجعله ملحا ، ولا العذب يجعل البحر الملح مثله ، فقد حجز بينهما ربهما بحاجز من

قدرته ، أو بحاجز من الأجرام الأرضية ، فترى نهر النيل بمصر يخرج من جبال الحبشة ، ويجرى شمالا حتى يصب فى البحر الأبيض المتوسط ، ولا يبغى أحدهما على الآخر .

(فبأىّ آلاء ربكما تكذبان ؟) أى فبأى هذه المنافع تكذبان ؟ إذ لو بغى الملح على العذب لم نجد ماء للشرب ولا لسقى الحيوان والنبات ولم نجد ما نقتات به ، فنهلك جوعا ، ولو بغى العذب على الملح لم نجد ما يصلح الهواء ويمنع عاديات الجراثيم التى فيه .

(يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان) وقد ثبت فى الكشف الحديث أن اللؤلؤ كما يستخرج من البحر الملح يستخرج من البحر العذب ، وكذلك المرجان وإن كان الغالب أنه لا يستخرج إلا من الماء الملح .

(فبأىّ آلاء ربكما تكذبان) أى فبأى هذه النعم تكذبان ؟ .

(وله الجوارى المنشئات فى البحر كالأعلام) أى وله السفن الكبار التى رفعت شرعها فى الهواء كالجبال الشاهقة ، تجرى فى البحر بما ينفع الناس ، فتنقل المتاجر من بلد إلى آخر ، والأقوات من إقليم هى كثيرة فيه إلى آخر هو محروم منها ، وبذا يتمّ تبادل السلع ، وسدّ حاجات الأمم فى أقواتها ومشاربها .

(فبأى آلاء ربكما تكذبان) أى فبأى هذه النعم تكذبان ـ أبخلق مواد السفن أم بكيفية تركيبها ، أم بإجرائها فى البحر بأسباب لا يقدر عليها غيره سبحانه .

أىْ عبادى ، هل ظننتم أن مجرد الإيمان كاف لكم فى شكر هذه النعم ، فهل خلقت الشمس والقمر والنجم والشجر والزرع والحب ، والأنهار والبحار ، والدر والمرجان لقوم لا يعقلون ، أو خلقتها لقوم يقبلون منى النعمة ، وكيف يقبلونها دون أن يعرفوها؟.

كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٢٧) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٨) يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ (٢٩) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٠) .

شرح المفردات

فان : أى هالك ، وجه ربك : أى ذاته ، ذو الجلال والإكرام : أى ذو العظمة والكبرياء ، يسأله من فى السموات والأرض : أى يطلبون منه ما يحتاجون إليه فى ذواتهم حدوثا و بقاء وفى سائر أحوالهم بلسان المقال أو بلسان الحال ، هو فى شأن : أى فى أمر من الأمور ، فيحدث أشخاصا ويجدد أحوالا .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر النعم التى أنعم بها على عباده فى البر والبحر ، فى السماء والأرض أردف ذلك ببيان أن هذه النعم تفنى ولا تبقى ، فكل شىء يفنى إلا ذاته تعالى ، وكل من فى الوجود مفتقر إليه فهو المدبر أمره والمتصرف فيه ، فهو يحيي قوما ويميت آخرين ، ويرفع قوما ويخفض آخرين .

الإيضاح

(كل من عليها فان . ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام) أى إن جميع أهل الأرض يذهبون ويموتون ، وكذلك أهل السموات ، ولا يبقى سوى وجه ربك الكريم ، فإنه الحى الذى لا يموت أبدا .

قال قتادة : أنبأ بما خلق ، ثم أنبأ أن ذلك كله فان ، وقد ورد فى الدعاء المأثور يا حى يا قيوم ، يا بديع السموات والأرض ، يا ذا الجلال والإكرام ، لا إله إلا أنت ،

برحمتك نستغيث ، أصلح لنا شأننا كله ، ولا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين ، ولا إلى أحد من خلقك .

ثم وصف سبحانه نفسه بالاستغناء المطلق ، والفضل العام ، وأنه ذو الفضل والكبرياء ، يعطى خلقه من النعم والإكرام ما يليق بجلالهم ، ولا يحجب فضله عن مخلوق خَلَقه .

انظر إلى هذه النجوم الثواقب فى ظلمات الليل ، ترها مشرقة ساطعة تتلألأ نورا تنشرح له الصدور ، وتقرّبه العيون ، فتتجلى لك عظمة الخالق وكبرياؤه ، تموت الأحياء ، وتلك النجوم باقية ، والأرض لم تتغير على ما نشاهد ، وهذا مظهر الجلال والعظمة ، جمال فى النجوم ، بهجة فى الإشراق ، مناظر باهرة ، أنوار ساطعة أجسام عظيمة ، أحوال تتقلب ، وأهوال تتعاقب ، والناس من بينها يخرون صعقين ، فهذا لعمرك هو الجلال والعظمة ، فسبحان الخلاق العظيم .

(فبأى آلاء ربكما تكذبان) أى فبأى هذه النعم تكذبان ؟ فالفناء باب للبقاء وللحياة الأبدية ، والنعم السرمدية ، ولولا تحليل أجسامنا بالموت لتعطلت الحياة ، إذ المادة الأرضية إذا بقيت على حال واحدة كانت قواها محدودة ، لكن انبعاث الصور الكثيرة وتعاقبها جيلا بعد جيل يلبس المادة جميع الصور والأشكال ويجعل العالَم فى تجدد مستمر .

انظر إلى بنى الإنسان مثلا إذا توالدوا جيلا بعد جيل ولم يمت منهم أحد ، فلا تمضى إلا أجيال معدودة حتى يكون على القدم ألف قدم ، وتمتلئ الأرض بالآدميين ، فلا يكفيهم حيوان أرضى ولا نبات مأكول ولا يجدون وسيلة للعيش إلا أن يأكل بعضهم بعضا ، وتمتلئ الأرض رمما آدمية من السغَب والمخْمَصة .

والخلاصة — إن فى الفناء نعمتين . نعمة الرحمة بتعاقب الأجيال ، ونعمة الخروج من سجن المادة إلى فسيح العالم الروحى والتمتع بنعيم آخر بعد الموت .

ولما كان ما ذكر يتضمن الافتقار المتجدد إليه تعالى أوضحه بقوله :

(يسأله من فى السموات والأرض) إذ أن المادة دائما تلبس جديدا وتخلع قديما، فأجسامنا وأجسام الحيوان على هذا المنوال، فهما فى حاجة إلى بقاء الأجسام وتغذيتها وإذا انحل جسم افتقر إلى شىء يعوض ما ذهب، فالتغيرات المستمرة افتقار، وهذا الافتقار مستمر فى كل لحظة، وذلك يدعو إلى السؤال من الواهب المعطى إما بالنطق وإما بتوجه النفس وطلبها العون والمدد والفيض من فضله.

وجماع القول — إن المادة مفتقرة إلى بقاء ما يناسبها، فالنبات فى كل لحظة مفتقر إلى ما يبقيه من ماء وهواء ومواد أخرى، والحيوان يطلب ما يحتاج إليه، والإنسان يسأل ما هو فى حاجة إليه: إما سؤال حال، وإما سؤال مقال فى كل وقت وآن.

(كل يوم هو فى شأن) فمن شئونه أنه يحيى ويميت ويرزق ويعزّ ويذل، ويُمرض ويشفى، ويعطى ويمنع، ويغفر ويعاقب، ويرحم ويغضب، إلى نحو أولئك.

ومن شئونه إعطاء أهل السموات والأرض ما يطلبون منه على اختلاف حاجاتهم، وتباين أغراضهم.

عن عبد الله بن منيب قال: تلا علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية فقلنا يارسول الله وما ذلك الشأن؟ قال: «أن يغفر ذنبا، ويفرج كربا، ويرفع قوما ويضع آخرين» أخرجه الحسن بن سفيان والبزار وابن جرير والطبرانى وأبو نعيم وابن عساكر. وقال ابن عيينة: الدهر عند الله يومان. يوم الدنيا وشأنه فيه الأمر والنهى، والإماتة والإحياء، ويوم القيامة وشأنه فيه الجزاء والحساب، وسأل عبدالله بن طاهر الحسين بن الفضل عن الجمع بين هذه الآية، وماصح من قوله صلى الله عليه وسلم «جفّ القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة» فقال: شئون يبديها، لاشئون يبتديها.

(فبأى آلاء ربكما تكذبان) أى فبأى هذه النعم تكذبان؟ فكم من سؤال

أجبته ، وكم من جديد أحدثته ، وكم من ضعيف فى الحياة أرحته ، إما بصحة تُسْعِده ، أو بموت من سجن المادة يخرجه .

سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ(٣١) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ(٣٢) يَامَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا ، لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ (٣٣) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ(٣٤) يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ(٣٥) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٦) .

شرح المفردات

سنفرغ لكم : اى سنتجرد لحسابكم وجزائكم يوم القيامة ، والمراد التوفر على الجزاء والانتقام منهما .

قال الزجاج : الفراغ فى اللغة على ضربين : أحدهما الفراغ من الشغل ، والآخر القصد للشىء والإقبال عليه كما هنا اهـ .

والثقلان : الجن والإنس كما علمت ، أن تنفذوا : أى تخرجوا ، والأقطار : الجوانب واحدها قطر ، والسلطان : القوة والقهر ، والشواظ : اللهب الخالص ، والنحاس : الدخان الذى لا لهب فيه ، قال النابغة الذبيانى :

تضىء كضوء السراج السليـــط لم يجعل الله فيـه نحاسا

فلا تنتصران : أى فلا تمتنعان من الله ولا يكون لكما منه ناصر .

المعنى الجملى

بعد أن عدد سبحانه نعماءه على عباده فى البر والبحر وفى الأرض والسماء ، ليشكروه على ما أنعم ، ويعبدوه وحده على ما أعطى وتمم ، وذكر أنهم مفتقرون

إليه آناء الليل وأطراف النهار ، ثم أرشد إلى أن هذه النعم لاتدوم ، بل هى إلى زوال ، فكل ما على وجه الأرض سيفنى ، وتبدل الأرض غير الأرض والسموات نبههم إلى أنه فى يوم القيامة سيلقى كل عامل جزاء ما عمل ، وثواب ما اكتسب ، ولا مهرب حينئذ من العقاب ، ولا سبيل إلى الامتناع منه ، وسيكون جزاء المشركين به العاصين لأوامره ، نارا تلظى لايصلاها إلا الأشقى الذى كفر بربه وكذب برسله ، فاستعدوا لهذا اليوم قبل أن تندموا ، ولات ساعة مندم .

الإيضاح

(سنفرغ لكم أيها الثقلان) أى سنقصد لحسابكم ومجازاتكم على أعمالكم ، وهذا وعيد شديد وتهديد من الله لعباده ، كما يقول القائل لمن يهدده : إذًا أتفرغ لك : أى أقصد قصدك .

هذا وإن شأن الآخرة ماهو إلا شأن من الشئون ، فلا يشغله شأن عن شأن وهو القائل : « إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ » والقائل : « وَمَا أَمْرُنَا إِلاَّ وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ » .

(فبأى آلاء ربكما تكذبان) أى فبأى نعم ربكما تكذبان يامعشر الثقلين ، ومن جملتها التنبيه إلى ماستلقونه من الجزاء فى هذا اليوم ، تحذيراً مما سيؤدى إلى سوء الحساب ، وشديد العقاب .

ثم ذكر أنه لامهرب فى هذا اليوم من جزاء كل عامل على عمله فقال :

(يامعشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا) أى إن قدرتم أن تخرجوا من جوانب السموات والأرض هاربين من عقاب الله ، فارّين من عذابه فافعلوا ، والمراد أنكم لاتستطيعون ذلك ، فهو محيط بكم لاتقدرون على الخلاص منه ، فأينما ذهبتم أحيط بكم .

ثم بين السبب فى عدم إمكان المهرب فقال :

(لاتنفذون إلا بسلطان) أى إن المهرب إنما يكون بالقوة والقهر ، وأنى لكم بهما ؟ وممن تستمدونهما وأنتم لاتجدون إذ ذاك حولا ولا طولا .؟

(فبأى آلاء ربكما تكذبان) ومن جملتها النعمة الحاصلة بالتحذير والتهديد ، فإنها تزيد المحسن إحسانا ، وتكف المسىء عن إساءته ، مع أن من حذركم وأنذركم قادر على الإيقاع بكم دون مهلة ، والعفو عن المذنب مع كمال القدرة عليه من أجل النعم التى يسديها الله إلى عباده .

ثم بين السبب فى طلب المهرب فقال :

(يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران) أى يصب عليكما ألوان من النيران ، فمن لهب خالص يضىء كضوء السراج ، إلى نار مختلطة بالدخان ، فلا تستطيعان المهرب منها ، بل يسوقكم إلى الحشر سوقا .

(فبأىّ آلاء ربكما تكذبان؟) أى فبأى هذه النعم تكذبان ، فإن التهديد لطف والتمييز بين المطيع والعاصى بالإنعام على الأول والانتقام من الثانى من أجلّ نعم الإله القادر على جزاء عباده .

فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ (٣٧) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٨) فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ (٣٩) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٠) يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ (٤١) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٢) هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ (٤٣) يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ (٤٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٥) .

شرح المفردات

انشقت : تصدعت ، وردة : أى كالوردة فى الحمرة ، والدهان : مايدهن به : أى كانت مذابة كالدهان ، والسيما : العلامة ، والنواصى : واحدها ناصية وهى مقدم الرأس ، والأقدام : واحدها قدم ، وهى قدم الرجل المعروفة ، والحميم : الماء الحارّ ، وآنٍ : أى متناهٍ فى الحرارة لايستطاع شربه من شدة حرارته .

المعنى الجملى

بعد أن عدد عزت قدرته نعماءه على عباده ، وما يجب من شكرهم عليها ، ثم أرشدهم إلى أن هذه النعم لابقاء لها ولا ثبات ، ثم ذكر أن الناس محاسبون على الصغير والكبير من أعمالهم ، وسيلقون الجزاء عليها ، ولا مهرب حينئذ منها ، ولا نصير ينقذهم مما سيحل بهم من العذاب — ذكر هنا أنه إذا جاء ذلك اليوم اختل نظام العالم ، فتتصدع السموات ويحمر لونها وتصير مذابة غير متماسكة كالزيت ونحوه مما يدّهن به ، ويكون للمجرمين حينئذ علامات يمتازون بها عن سواهم ، فيتعرفهم الرائى لهم دون حاجة إلى سؤال نكالا وخزيا لهم ، ثم يجرون إلى جهنم من نواصيهم وأرجلهم ، ويقال لهم توبيخا وتقريعا : هذه جهنم التى كنتم تكذبون بها ، وينتقل بهم من جهنم إلى ماء حار كالمهل يشوى الوجوه ؛ ومن عذاب إلى ماهو أشد منه .

الإيضاح

(فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان) أى فإذا جاء يوم القيامة تصدعت السموات واختلت نظمها ، وتبعثرت أجرامها وكواكبها عن مداراتها ، واحمر لونها وأذيبت حتى صارت كأنها الزيت ونحوه مما يدّهن به .

ونحو الآية قوله : « إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ . وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ »

وقوله : « إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ . وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ » وقوله : « وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ » .

والخلاصة — إنها تذوب كما يذوب دردىء الزيت والفضة حين السبك ، وتتلون كما تتلون الأصباغ التى يدَّهن بها ، فتارة تكون حمراء وأخرى تكون صفراء وثالثة تكون زرقاء .

(فبأى آلاء ربكما تكذبان) فإن الإخبار بنحو ماذكر مما يزجر عن الشر ، فهو لطف أىّ لطف ، ونعمة أيما نعمة .

(فيومئذ لايسأل عن ذنبه إنس ولا جان) لأنهم يعرفون بسيماهم حينما يخرجون من القبور ويحشرون إلى الموقف .

ونحو الآية قوله تعالى : « هَذَا يَوْمُ لَا يَنْطِقُونَ ، وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ » ثم يسألون بعدئذ كما يدل على ذلك قوله : « فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ . عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ » .

(فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟) أى فبأى هذه النعم تكذبان ، فإن تخويف المجرم ليرتدع نعمة عليه حتى يرتدع عن ذنبه ، و يثوب إلى رشده ، و يتوب إلى ربه .

ثم ذكر السبب فى عدم سؤال الإنس والجان عن ذنوبهم فقال :

(يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصى والأقدام) أى يعرف المجرمون حينئذ بعلامات يمتازون بها عن سواهم ، فلا حاجة حينئذ إلى السؤال والجواب ، لأن السيما ميزت كل مجرم بنوع جُرْمه .

ولقد اهتدى الإنسان بعقله إلى فوائد هذه العلامات فى الدنيا ، فأنشأت الحكومات إدارات خاصة لعلامات المشتبه فى سلوكهم ومعتادى الإجرام ، فتأخذ إبهاماتهم وتحفظها فى أضابير خصيصى بهم، ولكل امرئ خطوط فى إبهامه لاتشابه خطوط غيره فيه ولا يحصل فيها التباس ، فمتى أحدث أحدهم حدثا وجاء بجرْمٍ

روجع ملفه الخاص واستخرجت صورة إبهامه من ملفه وطبقت على الصورة الخارجية ولاقى فى المحاكم مايستحقه من عقاب .

والخلاصة — إن لكل امرئ أحوالاً تخصه فى جسمه وعقله وأخلاقه ، يعرف الناس منها الآن قليلا ، وبقية علمها عند الله يُعْلِمها ملائكته يوم القيامة فيعرفون المجرمين بها .

ثم تسحبهم الملائكة تارة بأخذ النواصى ، وأخرى بأخذ الأقدام ، روى عن الضحاك «أن الملَك يجمع بين ناصية أحدهم وقدميه فى سلسلة من وراء ظهره ، ثم يكسر ظهره ويلقيه فى النار ، وقيل : تأخذ الملائكة عليهم السلام بعضهم سحبا بالناصية ، وبعضهم سحبا بالقدم ، ولا نجزم بشىء من ذلك إلا بالنص القاطع .

وهذا الوضع معهم سبيل من سبل الإهانة والإذلال والنكال .

(فبأى آلاء ربكما تكذبان) يقال هنا مثل ماسلف حذو القُذَّة بالقذَّة .

(هذه جهنم التى يكذب بها المجرمون . يطوفون بينها وبين حميم آنٍ) أى ويقال لهم على سبيل التأنيب والتوبيخ : هـذه جهنم التى كنتم تكذبون بها فى الدنيا ، فها أنتم الآن قد شاهدتموها ورأيتموها رأى العين ، فذوقوا عذابها واشربوا من الحميم الذى يقطع الأمعاء والأحشاء فأنتم بين الجحيم والحميم .

والخلاصة — إنهم إذا استغاثوا من النار جعل عذابهم الحميم الآنى الذى صار كالمهل (دردىء الزيت : أى عكره) .

ونحو الآية قوله : «إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ . فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ » .

(فبأى آلاء ربكما تكذبان) يقال هنا مثل ماقيل فيما سلف .

وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ (٤٦) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٧) ذَوَاتَا أَفْنَانٍ (٤٨) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٩) فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ (٥٠) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥١) فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ (٥٢) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٣) مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ (٥٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٥) فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ (٥٦) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٧) كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ (٥٨) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٩) هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ (٦٠) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦١).

شرح المفردات

الخوف فى الأصل : توقع المكروه عند ظهور أمارة مظنونة أو محققة ، وضده الأمن ؛ ويراد به هنا الكف عن المعاصى مع فعل الطاعات ، ومقام ربه : أى قيامه عليه واطلاعه على أعماله ، جنتان : أى جنةروحية لقلبه ، وجنة جسمانية على شاكلة ماعمل فى الدنيا ، وقيل إنهما منزلان ينتقل بينهما لتتوافر دواعى لذته ، وتظهر آثار كرامته ، ذواتا : مثنى ذات بمعنى صاحبة ، والأفنان : الأنواع واحدها فنّ : أى ذواتا أنواع من الأشجار والثمار ، زوجان : أى صنفان رطب ويابس ولا يقصر يابسه عن رطبه فى الفضل والطيب ، والفرش : واحدها فراش ، والبطائن : واحدها بطانة ، والإستبرق : الديباج أى الحرير الثخين ، والجنى : الثمر ، دان : أى قريب ينناله القائم والقاعد والمضطجع ، قاصرات الطرف : أى نساء يقصرن أبصارهن على

أزواجهن لايفظرن إلى غيرهم ، لم يطمثهن : أى لم يمسسهن ، وأصل الطمث: خروج الدم ، ويراد به قربان النساء ، كأنهن الياقوت : أى فى الصفاء ، والمرجان : أى صغار اللؤلؤ فى البياض .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر مايراه المشركون يربهم والعاصون لأوامره ونواهيه من الأهوال من إرسال الشواظ من النار عليهم ، ومن أخذهم بالنواصى والأقدام ، إهانة لهم واحتقارا ، ومن التنقل بهم بين النار والحميم الآنى الذى يشوى الوجوه — ذكر هنا ما أعده من النعيم الروحى والجسمانى لمن خشى ربه وراقبه فى السر والعلن ، فمن جنات متشابهة الثمار والفواكه تجرى من تحتها الأنهار ، جناها دانٍ لمن طلبه وأحب نيله ، يجلس فيها على فرش بطائنها من الديباج ، ومن نساء حسان لم يقرب منهن أحد لامن الإنس ولا من الجن ، وهن كالياقوت صفاء واللؤلؤ بياضا ، وذلك كفاء ماقدموا من صالح العمل ، وما أسلفوا فى الأيام الخالية ، وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان .

الإيضاح

(ولمن خاف مقام ربه جنتان . فبأى آلاء ربكما تكذبان؟) أى ولمن خشى ربه وراقبه فى أعماله ، وأيقن بأنه مجازيه عليها يوم العرض والحساب ، يوم تجزى كل نفس بما كسبت ، فإذا هو همّ بمعصية ذكر الله وأنه عليم بسره ونجواه ، فتركها مخافة عقابه ، وشديد حسابه ، ففعل الخير وأحب الخير للناس — جنتان: جنة روحية تصل به إلى حظيرة القدس ، وجمال الملكوت ورضا الله عنه « وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ » وجنة جسمانية بمقدار ماعمل فى الدنيا من خير ، وقدم من صالح عمل ،

فبأى نعم ربكما أيها الثقلان تكذبان ، فإثابته المحسن منكم بما وصف، وعقابه العاصى بما عاقب من النعم العظمى ، والمنن الكبرى .

(ذواتا أفنان. فبأى آلاء ربكما تكذبان) أى ذواتا أنواع وألوان من الأشجار والثمار من قولهم « أفنن فلان فى حديثه إذا أخذ فى فنون منه وضروب مختلفة ، والمتنوقون فى الدنيا يتنقلون من فاكهة إلى أخرى فيكون ذلك أدعى إلى زيادة اللذة ، وأكثر شهوة للطعام ، كما قال قائلهم :

ومن كل أفنان اللذاذة والصِّبا لهوتُ به والعيشُ أخضر ناضرُ

(فيهما عينان تجريان . فبأى آلاء ربكما تكذبان) أى فيهما عينان تسرحان وتسقيان تلك الأشجار والأغصان ، إحداهما يقال لها التسنيم ، والأخرى السلسبيل قاله الحسن البصرى . وقال أبو بكر الوراق: تجريان لمن كانت عيناه فى الدنيا تجريان من مخافة الله عز وجل ، فتجريان فى كل مكان شاء صاحبهما وإن علا مكانه ، كما تصعد المياه فى الأشجار فى كل غصن منها وإن زاد علوها .

(فيهما من كل فاكهة زوجان . فبأى آلاء ربكما تكذبان) أى فيهما من كل فاكهة صنفان : رطب ويابس ، لاينقص أحدهما عن الآخر لذة وطيبا ، بخلاف ثمار الدنيا فإن الطازج فيها ألذ طعما وأشهى مأكلا .

وبعد أن ذكر طعامهم ذكر فراشهم فقال :

(متكئين على فرش بطائنها من إستبرق) أى مضطجعين على فرش بطائنها من الديباج الغليظ ، وإذا كانت هذه حال البطائن فما ظنكم بالظهائر ؛ ومن ثم روى عن ابن مسعود أنه قال : أخبرتم بالبطائن ، فكيف لو أخبرتم بالظهائر ؟. وقيل لسعيد ابن جبير : البطائن من إستبرق فما الظواهر ؟ قال : هذا مما قال الله فيه « فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ » وبمثله قال ابن عباس .

وفى هـذا دليل على شرف هذه الفرش ، وتمتع أهلها بالثواب العظيم ، والنعيم المقيم .

وإنما ذكر الاتكاء ، لأنه هيئة تدل على صحة الجسم ، وفراغ القلب ، إذ العليل لايستطيع أن يستلقى أو يستند إلى شىء ، وهو مشغول القلب يتحرك تحرك المحضَر للعقاب .

(وجنى الجنتين دانٍ . فبأى آلاء ربكما تكذبان) أى وثمرهما قريب إليهم متى شاءوا ، ونحو الآية قوله : « قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ » وقوله : « وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً » فهى لاتمتنع ممن أرادها ، بل تنحط إليه من أغصانها .

ثم ذكر أوصاف النساء اللواتى يتمتعون بهنّ فقال :

(فيهن قاصرات الطرف لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان . فبأى آلاء ربكما تكذبان) أى فى تلك الجنات نساء غضيضات الطرف عن غير أزواجهن ، فلا يرين شيئا فيها أحسن منهم ، وهن أبكار لم يمسسهن أحد قبل أزواجهن لامن الجن ولا من الإنس .

(كأنهن الياقوت والمرجان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان) أى كأنهن الياقوت صفاء وصغار اللؤلؤ بياضا .

أخرج عبد الرزاق وعبد بن حُميد وابن جرير عن قتادة أنه قال فى الآية : فى صفاء الياقوت و بياض اللؤلؤ .

ثم بين السبب فى هذا الجزاء فقال :

(هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان) أى ما جزاء الإحسان فى العمل إلا الإحسان فى المثوبة .

ونحو الآية قوله : « لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ » .

وعن أنس بن مالك قال : « قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم : هَلْ جَزَاءُ

الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ، وقال : هل تدرون ما قال ربكم ؟ قالوا: الله ورسوله أعلم . قال : ماجزاء من أنعمت عليه بالتوحيد إلا الجنة » أخرجه ابن أبى حاتم وابن مردويه والبيهقى ، وروى عن ابن عباس «هل جزاء من قال : لا إله إلا الله فى الدنيا إلا الجنة فى الآخرة »

وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ (٦٢) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٣) مُدْهَامَّتَانِ (٦٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٥) فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ (٦٦) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٧) فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ (٦٨) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٩) فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ (٧٠) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧١) حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ (٧٢) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٣) لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ (٧٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٥) مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ (٧٦) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٧) تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٧٨) .

شرح المفردات

ومن دونهما : أى من ورائهما وأقل منهما ، مدهامتان : أى خضراوان بسواد ؛ لأن الخضرة إذا اشتدت ضربت إلى السواد من كثرة الرى بالماء ونحوه ، نضاختان أى فوارتان بالماء ، والنضخ : فوران الماء ، حور : واحدتهن حوراء : أى بيضاء . قال ابن الأثير : الحوراء هى الشديدة بياض العين والشديدة سوادها ، خيرات : أى

خيّرات بالتشديد فخفف كما جاء فى الحديث «هيّنون لينون» ، مقصورات فى الخيام: أى مخدرات ؛ يقال امرأة قصيرة ومقصورة : أى مخدرة ملازمة بيتها لاتطوف فى الطرق . قال قيس بن الأسلت :

وتكسل عن جاراتها فيزرنها وتعتلّ من إتيانهن فتعذر

والخيام : واحدها خيمة وهى أربعة أعواد تنصب وتسقف بشىء من نبات الأرض ، وما يتخذ من شعر أو وبر فهو خباء ، والرفرف واحده رفرفة : وهى الوسادة (المخدّة) أو ماتدلّى من الأسرّة من غالى الثياب ، والعبقرىّ : منسوب إلى عبقر تزعم العرب أنه بلد يسكنه الجن ويسندون إليه كل شىء عجيب ، والمراد العجيب النادر الموشى من البسط ، تبارك اسم ربك : أى تقدس وتنزه ربنا الذى أفاض على عباده نعمه .

المعنى الجملى

هذا تتميم لوصف الجنات بما يشوق الراغبين فيها ، ليعملوا ما يوصلهم إليها ، ويرضى ربهم عنهم ، يوم لاينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

الإيضاح

(ومن دونهما جنتان . فبأى آلاء ربكما تكذبان . مدهامتان. فبأى آلاء ربكما تكذبان) أى ومن وراء هاتين الجنتين وأقل منهما فضلا جنتان تنبتان النبات والرياحين الخضراء التى تضربُ إلى السواد من شدة خضرتها ، لكثرة الرى ، وأما الجنتان السابقتان ففيهما أشجار وفواكه ، وفرق ما بين الحالين ، فبأى هذه النعم تكذبان وهى نعم واضحة لاتجحد ولا تنكر .

قال الحسن : الأوليان للسابقين والأخريان للتابعين لهم .

عن أبى أيوب الأنصارى قال: «سألت النبى صلى الله عليه وسلم عن قوله مدهامتان قال : خضراوان » أخرجه الطبرانى وابن مردويه .

(فيهما عينان نضاختان . فبأى آلاء ربكما تكذبان) النضح كالرش فهو دون الجرى ، ومن ثم قال البَرَاء بن عازب فيما أخرجه عنه ابن المنذر وابن أبى حاتم : « العينان اللتان تجريان خير من النضاختين » .

أى فيهما عينان تفوران بالماء . وقال مجاهد : نضاختان بالخير والبركة .

(فيهما فاكهة ونخل ورمان . فبأى آلاء ربكما تكذبان) خص النخل والرمان مع دخولهما فى الفاكهة ، تنبيها إلى مالهما من ميزة عن غيرهما من الفواكه ، لأنهما يوجدان فى الخريف والشتاء ، ولأنهما فاكهة و إدام ، وقد جاء مثل هذا فى قوله تعالى : « حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى » وقوله : « وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ » .

(فيهن خيرات حسان . فبأى آلاء ربكما تكذبان) أى فى تلك الجنات نساء خيرات الأخلاق ، حسان الوجوه .

روى الحسن عن أمه عن أم سلمة قالت: «قلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله أخبرنى عن قوله تعالى خيرات حسان ؟ قال : خيرات الأخلاق حسان الوجوه » .

وقال الرازى : فى باطنهن الخير ، وفى ظاهرهن الحسن . وروى أن الحور يغنّين: نحن الخيرات الحسان ، خلقن لأزواج كرام .

(حور مقصورات فى الخيام . فبأى آلاء ربكما تكذبان) أى وهؤلاء الخيرات الحسان واسعات العيون مع صفاء البياض حول السواد ، محبوسات فى الحجال ، فلسنَ بطوّافات فى الطرقات ، والعرب يمدحون النساء الملازمات للبيوت للدلالة على شدة الصيانة .

(لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان . فبأى آلاء ربكما تكذبان) تقدم الكلام فى نظيره قبل .

(متكئين على رفرف خضر وعبقرى حسان . فبأى آلاء ربكما تكذبان)

أى وهم يتكئون على ثياب ناعمة وفرش رقيقة النسج من الديباج ، ووسائد عظيمة ، و بسط لها أطراف فاخرة ، غاية فى كمال الصنعة وحسن المنظر .

(تبارك اسم ربك ذى الجلال والإكرام) أى تعالى ربك ذو الجلال والعظمة والتكريم على ما أنعم به وتفضل من نعم غوال ، ومنن عظام .

وهذا تعليم منه لعباده بأن كل هذا من رحمته ، فهو قد خلق السماء والأرض والجنة والنار ، وعذب العاصين ، وأثاب المطيعين ؛ وآتاهم من فضله ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

سورة الواقعة

هى مكية إلا قوله : « أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ . وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ » فمدنية ، وعدة آيها ست وتسعون ، نزلت بعد طه .

ووجه مناسبتها ما قبلها :

(١) إن فى كل منهما وصف القيامة والجنة والنار .

(٢) إنه ذكر فى السورة السابقة عذاب المجرمين ونعيم المتقين ، وفاضل بين جنتى بعض المؤمنين وجنتى بعض آخر منهم ، و بين هنا انقسام المكلفين إذ ذاك إلى أصحاب ميمنة وأصحاب مشأمة وسابقين .

(٣) إنه ذكر فى سورة الرحمن انشقاق السماء ، وذكر هنا رجّ الأرض ، فكأنّ السورتين لتلازمهما واتحادهما موضوعا سورة واحدة ، مع عكس فى الترتيب ، فقد ذكر فى أول هذه ما فى آخر تلك ، وفى آخر هذه ما فى أول تلك .